حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٩ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠٢١)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

اثنوغرافيا التصوف – قراءة في الممارسات الصوفية في المجتمع العراقي

احمد خلف لعيبي*
أحمد عبد الرضا محمد الحسني**

جامعة بغداد/كلية الآداب /قسم علم الاجتماع في التخصص الانثروبولوجي
Email: woh82@gmail.com

المستخلص

يعد موضوع التصوف كممارسة دينية من المواضيع المهمة التي يمكن التركيز عليها انثروبولوجيا، ويرجع ذلك الى اهتمام هذا الحقل بدراسة كافة الجوانب المختلفة للجماعات الاجتماعية التي تنتشر في المجتمع، وتجري هذه الممارسات على اعتبار التصوف اتصال باطني ذات سلوك ظاهري، يجسد من خلاله الظاهرة الدينية في ظل الزمان والمكان الذي يحدده الشيخ لمريده، ركز البحث على دراسة الممارسات الصوفية من خلال المنهجية الاثنوغرافية المعتمدة على الوصف الدقيق ووفق المنهج الوصف المكثف في حقل الانثروبولوجيا ومن خلال استعمال ادوات جمع المعلومات ومنها الملاحظة والملاحظة بالمشاركة والمخبرين وذلك لمحاولة تفسير السلوك الباطني او الهدف الخفي من هذه الممارسات والتي تتحدد بميدان الدراسة ، وتوصل البحث الى ان للواقع الديموغرافي ووجود الاضرحة الحاصة بمؤسسي الجماعات الصوفية في العراق (القادرية والرفاعية والنقشبندية) الاثر الاكبر في تنميط حس خاص بالتجربة الصوفية العراقية، فضلا عن تأثر المتصوفة العراقيين بالأحداث الصدامية بين الجماعات المسلحة ذات الطابع الديني مع السلطة في العراق والذي حاول فيه الداوريش في الوقت الحالي تكوين صورة ذهنية ممارساتية دينية ومنها الطابع الاستشفائي لإرجاع هذه الجماعات لمهدها الديني وخلق صورة مغايرة عن الحركات الاخرى التي انتشرت في المشهد العراقي في الفترة السابقة لبعد عام ٢٠٠٣ سقوط النظام السياسي السابق خلق عملية سياسية جديدة.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠٢١.

مقدمة:

ينظر الى الطرق الصوفية في المجتمع العراقي على انها جماعات مغلقة ذاتيا يصعب اختراقها دراسيا لتعقد المحتوى الفكري الذي تقوم عليه والي يتجذر بنواحي مختلفة يتوجب على الباحث الاجتماعي والانثروبولوجي بصورة خاصة دراستها، وتعتلي هذه الجوانب بمحتوى قصصي وخطاب كراماتي ممنهج يعمل على تحويل كافة الممارسات الى باعث روحي فلسفي يعتمد على مدلولات مختلفة ومنها المدلول الرمزي التواصلي الذي يخلق محتوى الرسائل التي ترسل من المريد الى الشيخ، باعتباره واسطة الى الله تعالى والذي يتمثل مجتمعيا بمعان خطابية مؤثرة، فضلا عن المدلول العقائدي الذي يأخذ بعاتقه تأسيس كافة الممارسات الذي تمارسه الطرق الصوفية في المجتمع العراقي، ويتعامل الصوفي بين المادة والروح في المجتمع العراقي وهذا ما يتم تتبعه ميدانيا ومن خلال الاثنوغرافيا بوصف الممارسات الصوفية ذات البعد الطقوسي والذي يولد المكان (التكية) مرتكزاً دينيا يميز هذه الطرق كجماعات عن باقي الجماعات الاخرى الدينية في المجتمع العراقي ومنخلال اطار اثنوغرافي تحليلي لوصف كافة هذه الممارسات على الواقع الصوفي العراقي. وتركز الاطار العام الاطار العام للبحث:

١. موضوع البحثResearch topic :

ان ما يميز الجماعات الصوفية في العراق هو وجود نوع خاص من الخطاب الديني الذي يمارسه الدراويش في المجتمع، اذ تعمل الدراسة على تشخيصه من خلال كافة محاوره الاثنوغرافيه ، والذي يحيله الى كافة الممارسات الصوفية ذات المدلولات المتنوعة والتي تحمل الجانب الرمزي الخطابي والممارساتي المشخص، وهذا الموضوع اخذ البحث بثناياها تحليل الجوانب المختلفة للتصوف كممارسة دينية

٢. هدف البحثObjective of research :

يهدف هدف البحث الى تسليط الضوء على الجماعات الصوفية (الدراويش) في المجتمع العراقي ودراسته الممارسات التعبدية والتواصل الاجتماعي من خلال شبكة من العلاقات المعقدة، على اعتبارها تجربة دينية تتداخل بكافة المحاور السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

٣. منهجية البحثResearch Methodology :

اعتمد البحث في وصف وتحليل المادة الميدانية على منجية الوصف المكثف ntensive Descriptionl للانثروبولوجي العالم كليفورد جيرتز Clifford Geertz حيث يعرف الوصف المكثف Intensive Description بالملاحظة الدقيقة الشديدة التكثيف لسلوك وافعال الافراد ضمن نطاق محدد قابل للملاحظة ويمكن من خلاله الوصول الى تأويلات الثقافة وعمومياتها.

اولا: الطقوس الصوفية:

لقد اهتم الصوفية بالممارسات والطقوس الشعائرية Ritual، والتي عدها شكلا من اشكال انماء الشخصية Personal، والتي تتمثل بتعبيرات رمزية مختلفة والتي تعبر عن واقع المجتمع الذي يعيش به مريدي الطرق الصوفة في الحياة المجتمعية، حيث ان الحياة الاجتماعية للدراويش في المجتمع العراقي لا تكون بمعزل عن الحياة العامة للمجتمع

العراقي ككل فهي جزء منه، ويتخذ ذلك مجموعة من الضوابط السلوكية التي تحكم نمط هذه التفاعلات ككل.

ان جوهر الشعور الديني Religious feeling ينظر اليه على انه لا يوصف او يعبر عنه فان كل المحاولات التعبيرية تعد تقريبية، ولهذا فهي رمزية ولكي يظل العالم غير مرئي للأشياء المقدسة حتى في عقول وقلوب المؤمنين به يقوم الرمزية بوظيفة من شأنها تحقق ذلك حيث تعتبر نتيجة لتاريخها المشترك مع المقدسsacred[١] وتعد واحدة من القوى المثيرة للمشاعر الانسانية ولهذا فليس من الغريب ان نفهم ان المشاركة في رمز شائع هي طريقة فعالية لتقوية وحدة لجماعة المؤمنين[٢].

لذلك ان البعد الديني وفرض القداسة والترميز للمقدس كما ذكره سبنسر متلازم في المكان والزمان وهذا ايضا ما يؤكد عليه ان المقدس لا يتماثل مع الالهي لكن يتجلى في الزمان[٣].

تتكون الجماعات من خلال الافعال الشعائرية وبفضلها، حيث تمثل الشعائر Rituals العلل والعملية والتأثير الفاعل لما هو مشعري، ومن خلال مضمونها الرمزي والبنائي لا فعالها المشعرية تخلق الانظمة التي يشارك فيها الجميع حتى وان كان ذلك هويتها وتثبيتها والشعائر تخلق الانظمة التي يشترك فيها الجميع حتى وان كان ذلك بإمكانات فاعلية مختلفة، وهذه الانظمة حقيقية وفي نفس الوقت متأصلة في مخيل المشارك في المشاعر، انها تمد كل مشارك بالثقة في انها تجعل افعال المشاركين الاخرين قابلة للتوقع ، ان اطار الشعائر Rituals يخلق التماثل بين افعال الحياة اليومية [٤]؛ اذ ان الجانب الطقسيritual في الفكر الطرقي لدى الدراويش يتصل كتحصيل الجانب المعرفي الاخلاقي.

ثانيا: الشعائر وصلتها في الزمان والمكان:

ان الشعائر Rituals مرتبطة بالمكان والزمان، وبهذه الشروط يعلم طابعها التاريخي والثقافي، فالكثير من الاماكن تؤثر بطرق مختلفة في البنية والكيفية والاسلوب التي تحقق الشعائر فيها وبها، ذلك ان اماكن الشعائر تختلف عن الاماكن المادية انها من جهة اولى تخلق مناظرات وعروضا مشعرية، وهي جهة ثانية تنتج شعائر بفضل حركات الجسد والمناظر والاطر الرمزية والمؤشرة التي لإمكان الشعائر، فالشعائر والاماكن ليست علاقتها من جنس العلاقات العلة والمعلول به بل هي علاقة تفاعل، فبتداخل الاماكن الفعلية الافتراضية والرمزية الخيالية مع ممارسات رمزية الجسم يتحقق مجال مشكل تاريخيا وثقافيا فتكون بذلك مناخ المكان وبنيته ووظيفته ، حيث تتكرر الافعال التي وجدت فيه سابقا والتي يكون المكان مناخا مناسبا لعرضها، وفي اندماج محاك لشرط المكان يتغير البشر الفاعلين شعائريا[٥].

ثالثا: دور الزمان في الفعل المشعري:

الى جانب المكان يمثل الزمان الشرط الثاني للفعل المشعري، كون التعامل مع الزمان حصيلة تعلم ثقافة فان الشعائرRituals تؤدي دورا حاسما فطابعها التكراري يؤدي الى طبع نظام الزمان في الجسد، فيتهيكل الجسد بهذا النظام والكثير من الشعائر تعود دوريا، انها تهدف الى توثيق حضور المجتمع والايقان من نظامه وامكانيته التحويلية بالتكرار، ان الشعائر تهدف الى منظرة الاستمرار واللازمانية وعدم التغير وكذلك كون الجماعات والافراد حصيلة مجرى عمليات واسقاطات، وينشأ في التعامل المشعري مع الزمان ملكة زمانية ملكة مجتمعية تحدد بنظام الزمان المشعري بنية كل الحياة المجتمعية

المشتركة في المجتمعات الحالية[٦]، ان الشعائر Ritualsعند الدراويش تأخذ بعدا زمانيا ويكون ذلك بأبعاد تفسيرية قرآنية، ويستشهد الدراويش بمجتمع الدراسة بقول الله تعالى (ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) (النساء ١٠٣)، وان اصل الزمان اتصل بالحال حيث لا يذكر الصوفية بين الماضي والا المستقبل بل يتحقق الاتصال الوقتي مع الله في الوقت الحاضر، والوقت عند الدراويش عبارة عن العبد وزمان الحال، وان تفكير الصوفية (الدراويش) ومن خلال الاحاديث يكدون على وجوب التشبث بالوقت الحاضر وعدم التفكير في السابق او المستقبل ويطلقون على الحالة (حجب عن الوقت)، اي تشتت[٧].

رابعا: الممارسات الصوفية للدراويش في المجتمع العراقي:

١- طقوس الخرقةRitual rituals [٨]:

اثناء هذا الطقس الطرقي الذي كان متبعا في الشرق الاوسط بشكل خاص والذي وقع التخلي عنه اليوم ، يقوم الشيخ بإلباس المريد الخرقة (قطعة من القماش او صوف) مسبغا عليه بركته الروحية الخالصة، وعلاوة على الرابطة التي تشد هذا بذاك، فان المريد يكون بذلك قد انتسب الى سلسلة ترتبط بالرسول ص وقد اعطى كثير من الاشياخ والعلماء الى هذا الطقس مقام السنة[٩]

وان بلباس الخرقة يكون المريد قد وضع نفسه تحت امرة الشيخ : انها خرقة الارادة التي تعني ان المريد يقبل ما يفرضه عليه من علوم روحية وان هنالك نوع اخر من التربية الصوفية وتسمى خرقة التبرك وهي نقل التربية فقط الى المريد، وقد غلب هذا الطقس الاقل صرامة طيلة العصر الوسيط ولكنه فقد تدريجيا اصالته وساهم في بروز النزعة الشكلانية في الملبس عند بعض المتصوفة الذين حملوا اردية غريبة ومعاطف وعصيا وغيرها من المناديل [١٠].

ويتصل طقس الخرقة بإعطاء البيعة او العهد الى شيخ الطريقة او الخلفاء ، والتي فضلا عن انه طقسا مقدسا الا انه محل بركة حيث ان الدراويش يرون ان في هذه الخرقة بركة تتحضر من الشيخ الى مريده ، في اعلان انتماء للمريد بشيخه، وهنالك بعض الدراويش في مجتمع الدراسة من قسم الخرقة الى الخرقة من تأتي بعهد وهو اصل انتماء الدرويش الى الطريقة وعن طريق الخليفة.

ويشير بعض الدراويش ان الخرقة rag قديما كانت احد الاعتراف او الاجازة العلمية للمريد، وايضا يشيرون ان الخرقة اعتمدت كسند لنقل الطريقة من الخليفة الى المريد الذي يختاره الشيخ خليفتا بعده، والذي يعطيها بعدا روحيا حيث يشير الدراويش ان اصل روحية الخرقة بأثبات انتسابها، وهذا يعني سند لطريقة في اصل الخرقة والذي يرجعونها الى شيخ الطريقة وسندها ولقد اعطى الصوفية (الدراويش) في مجتمع الدراسة اكثر من سند للخرقة فمنهم من ذكر الامام علي ابن ابي طالب ع ومنهم من ذكر الخليفة عمر بن الخطاب او الشيخ عبد القادر الكيلاني[١٣].

٢- العهد او البيعة Allegiance:

يعتبر هذا العهد اليوم وهو يتمتع بدعم النصوص المقدسة المؤكدة ، الطابع المشترك والاكثر انتشارا للارتباط بشيخ او بطريقة ، ستكون البيعة بالمصافحة ، حيث يكون الشيخ والمريد في حالة طهارة، ويقوم الثاني بصلاة للتوبة ثم يضع الطالب يده اليمنى تحت يد الشيخ وتعتبر هذه الاستتابة، او العودة الى الله الخطوة الاولى في طريق السلوك، وبعد ان يأخذ الشيخ يد مريده بين يديه يتلو عدة صلوات وادعية بصوت خافت ويصرح قد قبل

المريد ابنا او اخا لـه ويقبل هدايتـه علـى الطريـق، ويقسم الطالـب علـى احتـرام العهد وعلـى طاعة شيخ ومن ورائه طاعة الله ويكون الاتفاق احيانا مضمرا كما يضع المريدين ايديهم فوق يد الشيخ والمريد احيانا اخرى ويبدأ بعدها بتعلم الاذكار(١٢).

ويمكن ان ينضوي تحت لواء هذه الطريقة او تلك بهدف الحصول على البركة والانخراط في اكثر من طريقة ، وبالتالي في اكثر من سبيل للحصول على البركة لان كل الطرق تعود في اصولها الى النبي محمد وكان تعدد الانتساب متبعا بشكل واسع على مر القرون، وهو امر غير معروف كثيرا ففي التصوف الأول كان طلاب السلوك يتنقلون كثيرا مترددين على عدة شيوخ في الوقت نفسه ، وتقننت اجراءات الانتساب مع ظهور العائلات الروحية المختلفة (١٣).

وتتشابه الطرق الصوفية (القادرية والرفاعية والنقشبندية) في صيغة العهد ويذكر شيوخ والخلفاء لهذه الطرق الى ان العهد هو التزام والالتزام يكون امرا من امور الدين ويمكن ملاحظة صيغ العهد واطلاقها بوجود شهودا اثنين وفي مرات اخرى لا يوجد الشهود وحسب ما يحدده الخليفة، ويذكر الخلفية المريد ان هذا العهد هو للرب ويكون بالصيغة الاتية(عاهدتك على طاعة الله ورسوله).

عند دخول الدرويش الى الطريقة يتبع بذلك عدد من الطقوس او الممارسات والتي تؤهله الى الدخول بتجربة دينية جديدة، حيث ان للطريقة الصوفية في العراق تراتب طرقي يقسم عليه مريدي هذه الطريقة ومنها الطريقة القادرية والرفاعية والنقشبندية، حيث يطلق على مريدي الطريقة عند الدخول اسم الدرويش وبعد مروره بعدد من الممارسات والاجازات الدينية من شيوخه يصل الى مرحلة الديوانه و النقيب والمرتبة الاخيرة في الطريقة يسمى الخليفة ويمر الدرويش على اثرها بالعديد من الممارسات الدينية والتي ترتبط بالتكايا، حيث يعمل الخليفة (الشيخ) على دخول المريدين الى الطرق الصوفية،(١٤).

وبعدها يعمل الخليفة على ايكال الصلاة للمريد وتكون نفلا وعددها ركعتان مع الصلاة على النبي واله، ويعمد المريد بعد ذلك الى تعلم الاستغفار والجلوس بين يدي شيخه، اتي الاستغفار جسدا ملتصقا على جنبي الشيخ حيث يبدا المريد الاستغفار عن الخطايا التي ارتكبها او فعلها مسبقا، وبعد ذلك يقابله الشيخ بقراءة سورة المبايعة من القرآن(ام الذين يبايعونك انما يبايعون الله)، ويكون الايادي متشابكة بين الشيخ ومريده، ويبدا مرحل الدرس والذي يمتثل بدروس الاخلاق والذكر وينتهي بشرب كأس من الماء ويسمى ماء الطريقة وقد يمزج بقليل من السكر وبذلك يكون ايذانا بدخول الطريقة وهو طريقا للتطهير ويعمد بعض الخلفاء الى وضع الزيت ممزوج بالماء (١٥).

لقد شكل الماء بكل مصادره في القصيدة الصوفية رمزا حيويا مهما، فالماء وكل رمز يشتق منه كالمحيط والبحر والنهر والنبع، رمز حياة ووجود، والماء احد العناصر الرئيسية، ليس في الحياة الدنيا فحسب. بل في الحياة الاخرة، فهو عنصر من عناصر الجنة، لذلك امتزج عنصر الماء بتصورين اساسيين، الأول الحياة المتغلغلة في الطبيعة باسرها، والثاني تصور من لغة وحي القرآني ، يحيل الى صورة العرش الالهي، وان التصور الصوفي لقيمة رمز الماء، فهو مستوحى من القرآن، ايحاء لصورة العرش الالهي(١٦)،

وبعد المرحلة الاولى لدخول المريد الى الطريقة الصوفية، فهو يمثل المرحلة الاولى من مرحل التجربة الدينية، فالمريد المواظب على الطرقة من خلال اداء الاذكار والالتزام بصفة العهد والتوبة فهو ينتقل بدوره الى القاء الاذكار بمفرده ، وبذلك يستغني عن شيخه ويحقق بذلك الانفصال والتوجه لعبادة الله دون تعلم بعد ان استوفاها بالتعلم والتزم فيها.

ومن الآداب المتبعة لدى الطرق الصوفية لا يجوز للمريد ان يتبع او بايع اكثر من شيخ في الوقت نفسه، ولا يحق له الانتماء لا كثر من طريقة صوفية في مجمل انتمائه للطرق الصوفية، ومن الملاحظ احترام الدراويش لكافة الطرق الصوفية، الا انهم لا مانع ذلك من القول ان الطريقة التي ينتمي اليها هي الطريقة الحق، وهي الطريقة التي اوصلته الي النقاء الروحي ، مع توجيه ببعض السلبيات الى الطرق الصوفية الاخرى التي قد تختلف ببعض الصفات او الشعائر التي تتميز بها طريقته والتي يعدها هي من الصفات الفريدة التي امتازت بها الطريقة التي اعطى لها العهد(١٧).

ان الطقوس الاولى للمريد ضمن هذه الطرق تمثل طقوسا للعبورRitual، وهي تأخذ منطق المقارنة بين المقدس والمدنس، حيث ان كافة الاعمال قبل دخول المريد الى الطريقة يجب على المريد تقديم التوبة لها، وان لدخول المريد ضمن الطريقة يمثل انتصارا للخليفة، حيث عمل على كسب مريدين لهذه الطريقة، وان جميع ذلك وحسب رأيهم واعتقادهم يرجع الى بركات شيخ الطريقة، سواء القادرية او الرفاعية او النقشبندية، والذي يدخل ضمن المنظور البنائي structural التي يقوم عليه هذه الطرق الصوفية.

وهنا تتولد معرفة من نوعين :

١. المعرفة الذاتية لشخص المريد نفسه.

٢. المعرفة المتولدة للمجتمع المحلي.

وتتولد على كافة الفاعلين الاجتماعيين ضمن هذا المجتمع والذي يعكس التفاعل بين المعرفة الروحية ونفس الممارسة الثقافية الاجتماعية، اذ يعمل القائمون من كافة التكايا للطرق الصوفية في المجتمع العراقي (القادرية والرفاعية والنقشبندية)"، على استمرار المريد الذي يدخل الطريقة بالمحافظة على كافة الثوابت العقائدية التي يعمل الخليفة على ترسيخها ولذلك يعملون على النصح مع كافة المريدين ضمن الطريقة الواحدة.

٣- التلقينFeeding:

تفترض علاقة التلقين Feeding الحقيقية ان يتتبع الشيخ تطور المريد حتى يتمكن من تهذيب تربيته، ولكن بموازاة ذلك توجد ايضا اشكال اخرى من الارتباط اكثر مرونه، يلخصها مصطلح تبرك وهذا الطابع في الانتساب للطريقة يمكن الملقن من البحث فحسب عن التمتع بحماية الشيخ وطريقته، دون الالتزام بها كما يفعل المريد الحقيقي، تنطلق من الدائرة المقربة للمريدين الاكثر وفاء، ويشاهد التلقين في مجتمع الدراسة ومن خلال تتبع الدراويش حيث يكون التلقين من قبل الخليفة الى المريد حيث يضع الخليفة يده اليمنى في يد المريد يكون ذلك على طهارة البدن حيث يكون راحة يد الخليفة مقابلة لراحة يد المريد ويقبض فيها الابهام، ويعمل على تلقين المريد بآيات من القران الكرم ومنها اية المبايعة.

٤- الذكرRecollection :

غالبا ما تنطلق التجربة الروحية Spiritual experience في التصوف من عالم الظواهر لتستبطن تدريجيا، ويتضمن الذكر غالبا ثلاث مستويات من العمق:

أ- ذكر اللسان: الذي يوافق البعد الجسماني ، وفيه ننطق بالصيغة صوتيا، وحتى أذا بقي المرء ساكنا تحيل طبيعته النفس الى الروح، ويجب على الصوفي المحافظة على ذلك الدفء وبالتالي الامساك عن شرب الماء البارد اثناء او بعد الذكر، ولا بد ان يكون

هذا شديدا حتى يخترق اثره كل اطراف البدن حتى العروق والشرايين، وذكر اللسان يجب ان يرافقه حضور القلب ولا فلا جدوى منه، وبالنسبة الى الاشياخ فان هذا المستوى يخص المبتدئين.

ب- ذكر القلب: ومحله القلب المادي وهو رمز القلب الروحي، والذكر هنا صامت لانه يجب منذ الان التأقلم مع دقات القلب واتباع نبضات دفق الدم في الجسم ، يمكن للكائن البشري عندها ان يحس بنوع من الخلاص توسعا للإدراك تصحبه عادة رؤى واختيارات مفارقة للطبيعة ، وابرز علاماتها الظواهر المضيئة .

ت- ذكر السر: ويمكن ان يوضع في علاقة مع الاحسان، الذي يؤثث للإسلام وللإيمان وفي هذا المستوى تغيب كل ثنائية ويفنى الصوفي فيها في المذكور(١٨).

للعمل على انجاح الذكر لا بد للمريد ان يكون طاهرا وان يلبس ثيابا نظيفة وان يكون دعائه في الليل او في مكان مظلم ، ويغمض عينيه بشكل كامل او جزئي ، ويتوجه للقبلة وهو جالس القرفصاء واضعا راحتيه على فخذيه وفي مرحلة متأخرة من التصوف طلب من المريد احيانا ان يشخص شيخه بين عينيه وقبل ان يبدا يتوجه بقلبه الى الله فيستغفر عن حالة السهو والشرود ويحاول طرد الافكار المشوشة ، اما صيغ الذكر فالذكر مراسم محددة في رسائل الصوفية ولكن الاشارات المتعلقة بتلك التشريفات تختلف كثيرا بحسب الازمان والامكنة ، وابرز تلك الصيغ على الاطلاق هي ((لا الله الا الله)) و((الله))(١٩).

وتركز الطرق الصوفية الثلاث في المجتمع العراقي (القادرية و الرفاعية والنقشبندية) على اهمية الذكر، ويعتبر الذكر من الاساسيات لقيام الطريقة الصوفية ، ولا تقوم الممارسات للمريدين ضمن هذه الطرق من دون الذكر ومن الواجبات على المريد الحضور المستمر لحلقات الذكر، ويختلف الشيوخ في تفسير مواظبة المريد على الحضور الفاعل لحلقات الذكر حيث يذهب فريق منهم الى الدعوة الى الحضور الالزامي ويعدونه ركنا من اركان التصوف اما الفريق الثاني يرجع على ان يكون الحضور قدر الاستطاعة مع التشديد على حضوره او ان تركه يكون للحالات الخارج عن استطاعة المريد، وان نظام الذكر العام والذي يشبه بتكوين حلقات مع جلوس شيخ الحلقة في صدر المكان ويكون بجواره الشيخ ويحاطون بجمهور المريدين، ويبدأ الذكر بقراءة آيات من القرآن بإيعاز من شيخ الحلقة او الخليفة، ويتشكل الذكر في التكايا في المجتمع العراقي والخاص بالطرق الصوفية الثلاث على نوعين الأول يكون بصيغة التراتيل وغالبا ما يكون ترديد اسم ((الله)) او ((الله حي)) والي يمكن ملاحظته بعد الصلوات الخمسة في التكايا والجوامع التي تعد على خصوصيتها على طريقة معينة للطائفة السنية في العراق .

وان المصدر الاساس للتصوف هو التجربة الصوفية Sufi Experience للمتصوفة الذي صار مع الطرق الصوفية المرجع الاساس الذي تستقي منه الطريقة تجسيدا عبر الذكر والموسيقى(٢٠).فالرقص من التعابير الفنية الاولى التي اجادتها الشعوب على مر العصور واعرقها، لا يبالغون عندما يرون فيه بعدا غريزيا عفويا جمل الإنسان الأول على التعبير عن اتراحه وافراحه بمادته الاولى، التي عرفها واجاد استعمالها، الا وهي جسده، والولد يرقص قبل الغناء والرسم واللعب على الة موسيقية ما(٢١).

٥- الخلوةPrivacy :

تعد الخلوة Privacy عند الدراويش بالنية وهي نية التوجه والانقطاع الى الله وهو ترك كافة الاعمال المعتادة في حياة الدرويش اليومية، اذ يعمل المريد على الصوم في النهار ويخصص كافة الليل للعبادة والذكر ويعمل على استحضار معنى الذكر ويحاول جاهدا ان لا ينام بل يستمر في العبادة ، ويرشد الخليفة المريدين في حالة ان غلبهم النعاس ان يقوموا الى الوضوء والتسبيح والصلاة مباشرة، وان جال بفكرة الى غير العبادة يتذكر ويتمعن بالتسبيح لرفع الروحانية النفسية، ويصل الحال الى الصبح وصلاة الاستشراق[٢٢] وبعدها النوم ، وعند اليقظة يرجع الى الذكر والصلاة، ومن الشروط الاخرى ان لا يكلم احدا قط، ويمكنه ان يشافههم بالإشارات وان اضطر لذلك يمكنه ان يتكلم قدر الفهم فقط ، واشارت هنا كافة الكتب الخاصة بالطرق الصوفية الى ادأب الخلوة لدى الدراويش ومنه ما جاء به اسماعيل القادري وهو من خلفاء الطريقة القادرية حيث زاد على ذلك تكون الخلوة أذا خرج المريد الى الوضوء عليه ان يغطي رأسه عن الهواء وليكن المكان الذي يذكر فيه غير الباب، وان يسد كل ما يدخل منه النور ويستر الباب ان احتاج الى ستر وان يكون بعيدا عن الاصوات فليسد اذنيه بغطاء وعند الذكر يغمض عينيه ويكون متربعا مستقبل القبلة غير متكئ، فان الاتكاء يجلب النوم ، وان يعمل المريد على التقليل من شرب الماء:

أ- النية الصادقة .

ب- استاذان الشيخ قبل دخولها.

ت- دعاء الشيخ له لكي يستديمها.

ث- ان تكون الخلوة مظلمة .

ج- ربط قلبه بالشيخ وتخيل صورته.

ح- ان لا يشغل نفسه بحب ظهور الكرامات على يديه.

وتكمن الاهمية في الخلوة هو الاتصال الجزئي عن المجتمع واعادة الاندماج الاجتماعي Social integration، والذي يدخل بمرحلتين أساسيتين هو الخلوة والاندماج، والتي تتحقق لوقت محدد يندرج في الخلوة والاندماج.

الخلوة عند الطريقة الرفاعية والتي تبدأ سنويا في شهر محرم الحرام وفي يوم ١١ محرم، ولها عدد من الشروط ومنها الالتزام بعدم الاكل من الطعام المستخرج من ذي روح ، وتتم الخلوة بمجموعة من الاذكار توزع حسب الايام ويسجل لكلل يوم ذكر محدد وتصل الخلوة الى سبعة ايام محددة، حيث يره فيها المريد تهذيبا للنفس، ومن الطقوس لدى الرفاعية (طقوس الاستفاضة) والتي يعني بها مردي الطرقة الرفاعية ربط قلب المريد بقلب خليفته، حيث يعتقد مريدي الطريقة الرفاعية ان هذا الطقس يستفيض العلم من قلب الخليفة الى قلب مريده.

ويفرق المريدون (الدراويش) بين نوعين من الخلوة حيث يشير مجتمع الدراسة الى ان هنالك خلوتان خلوة جسدية والتي يطلقون عنها العزلة الظاهرة والتي تكون بتواري المريد عن الانظار بمكان مختلي، وهنالك الخلوة التي يطلقون عنها بالخلوة الباطنية ويقصدون فيها خلوة الدرويش بقلبه عن الممارسات الدنيوية والتي بموجبها يحاضر الناس

بالجسد ويشغل فكرة وقلبه بالتسبيح والذكر، ويرى الدراويش ان بالخلوة يحقق الإنسان الاتصال بربه ويقلل المعاصي الدنيوية التي تنتج عن اتصاله بمجتمعه(٢٣).

٦- الاستفاضةIntensification :

من الطقوس لدى الطرق الصوفية وخاصة تكون بتركيز لدى الطريقة الرفاعية هو طقس (الاستفاضة) والاستفاضة بسب قول الدراويش في مجتمع الدراسة، هو ربط قلب الدرويش بقلب شيخه والتي يعقدون بإفاضة العلم الباطني اليه، على اعتبار ان هنالك ارتباط بين الشيخ والولي وصولا الى النبي، وبذلك تتحقق الخلقة الوصلية بإفاضة العلوم الخفية بقلب المريد(الدرويش)، ويرتبط هذا الطقس لدى الدراويش مع الخلوة والتي بموجبها ينفصل المريد عن عالمه الدنيوي الى العالم الروحي الباطني والذي يحقق لهم فيوض علميه مختلفة، ويتحقق ذلك بزعم الدرويش بالذكر المتكرر(٢٤).

خامسا: الموسيقى والممارسات الصوفية :

توظف الديانات المختلفة الموسيقى والنغم في الجوانب الدينية المختلفة ومنها الطقوس والاذكار تثبيت الوقائع ، والتي تعمل على التأثير المباشر على المشاعر، وهذا ما تم تأشيرة عند الطرق الصوفية وهو ما مؤشر كذلك للديانة المسيحية واليهودية ... الخ.

جاء في تاج العروس ان الغناء هو كل ما الاذن من صوت حسن، وقال ابن خلدون في تعريفه بصناعة الغناء : هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفه، يقع كل صوت منها توقيعا عند قطعة، فيكون نغمة، ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة، فليذ سماعها لأجل التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات[٢٥]

ان حضور الموسيقى Music عميق في الميراث الديني العالمي وخصوصا في العراق ومصر واليونان والهند ، وعلى الرغم من موقف الفنون ومنها الموسيقى، لكن بعض الباحثين يرصدون حضورا للموسيقى في موضوعات دينية اذ تظهر الانغام الموسيقية واضحة جلية في العديد من الطقوس التعبدية، مثل الاذان، تراتيل القران والتمجيد واستقبال شهر رمضان وتوديعه، وتكبيرات صلاة العيد، اضافة للانغام والمقامات العراقية التي تصاحب حفلات الذكر بأنواعه والمولد النبوي وتقديم الحفلات الدينية وذكرى ولادة الرسول ص، والاحتفال بذكرى الاسراء والمعراج وليلة القدر اضافة الى المناسبات الاجتماعية الحزينة والمفرحة مثل العودة من الحج او سكن في بيت جديد او ايفاء النذور لان الموسيقى كانت ولا نزال تربط العالمين الديني والدنيوي عند المسلمين وغير المسلمين(٢٦).

ويعد ظهور المدائح النبوية الى بداية بعثة الرسول ص، فقد جرت عادة الشعراء في المديح ان يتوجهوا بمدحهم الى الشخصيات البارزة في المجتمع، ومع بعثة الرسول انقسم الناس في رسالته الى قسمين مؤيد ومعارض فذهب المعارضون الى ذم الرسول اما المؤيدون لرسالته فقد دافعوا عنها، وحملوا دعوته الى الانحاء والامصار وبما ان العادة قد جرت في الشعراء ان يتوجوا الشخصيات البارزة بمدحهم ، فقد وجدوا في الرسول ص اروع أنموذج للشخصية المثالية وبيان مكارم اخلاقه وهنا كانت بداية ظهور شعر المدائح النبوية (٢٧).

يقسم الفقه المدائح النبوية من الناحية الفقهية الى اقسام ثلاث وهي:

١. المديح المتفق على قبوله: وهو الذي لا يختلف احد فيه ولا يشذ احد في منازعته، وانما هو مأخوذ من صحصح الاخبار واوضح الالفاظ .

٢. المديح المتفق على رده وانكاره والزجر عنه: وهو ما خرج برسول الله حد العبودية لله، فأوصله الى رتبة الالوهية والفعل المطلق في الكون ونسبة حدوث الاشياء واحداثها اليه حقيقة وصراحة ، فهذا واضح في الكفر جلي في المنع، وهو قليل مردود بل يكون نادرا معدوما الوجود له.

٣. المديح المختلف فيه بين القبول والرد، والاخذ ه والمنع عنه، راجع الى مبالغات بعض المادحين، او اخذهم ببعض ما ليس بقوي السند من الاخبار والاثار، او فهمهم بعض النصوص على وجه محتمل لم يوافقهم غيرهم فيه، وهذا النوع من المديح يثير الجدل واللغط عند بعض المتشددين (٢٨).

النتائج والتوصيات

توصل البحث من خلال الدراسة المعمقة لكافة الممارسات الصوفية في المجتمع العراقي ومن خلال استعمال منهج البحث الاجتماعي فضلا عن الادوات الحقلية في الانثروبولوجيا، والمعايشة الفعلية الى النتائج الاتية:

١. ان الواقع الديموغرافي من خلال وجود الاضرحة لمؤسسي الطرق الصوفية في العراق على وضع نمط خاص للممارسات الصوفية الخاصة في المجتمع العراقي ومنها نشؤ التكايا الصوفية.

٢. اسهام التجارب الصوفية الغير عراقية في تنميط الممارسات الصوفية للجماعات العراقية ومنها ادخال فعاليات دخيلة مثل ضرب الاجسام بالسيوف والآلات الجارحة الاخرى.

٣. اثر النمط السياسي والامني في المجتمع العراقي على انحراف بعض الجماعات الصوفية عن الهدف الاساسي لنشؤها والانغماس الفعلي في الصراع المسلح مع السطات الحاكمة في العراق.

٤. عملت الجماعات الصوفية على ترسيخ صورة الذهنية عن طبيعة الممارسات الصوفية في المجتمع العراقي، من خلال اظهار جانب الاستشفاء الديني ، حيث عمل المتصوفة على اعادة اندماج الجماعات الصوفية ضمن الواقع الاجتماعي ضمن شبكة العلاقات الاجتماعية.

٥. هدفت الجماعات الصوفية في العراق ومن خلال نمط الممارسات الصوفية الى اعادة التوازن التكافلي للفقراء المعروفين لدى عامة المجتمع وازالة كافة التوترات السياسية التي ضعفت من مكانة وجود الدراويش بكافة الاصعدة ومنها الممارسات الطقوسية الصوفية نتيجة تنامي العنف في العراق بعد ٢٠٠٣ الى ٢٠١٧ .

٦. من الاقتراحات الواردة ضرورة فصل الجانب السياسي عن الجانب الديني وخاصة الممارسات الطقوسية الصوفية.

٧. ضرورة تسليط الضوء من قبل الباحثين الاجتماعيين من خلال البحث والتقصي عن واقع الجماعات الصوفية في العراق.

Abstract

Ethnography of Sufism- reading on Sufi Practices in Iraqi Society

By Ahmed Khalaf Luaibi

And Ahmed Abdel-Rida Mohammed Al-Hassani

The subject of Sufism as a religious practice is one of the important topics that can be emphasized by anthropology. This is due to the interest of this field in studying all the different aspects of the social groups that spread in society. These practices are based on mystical connection with apparent behavior, The research focused on the study of Sufi practices through the ethnographic methodology based on the exact description and according to the method intensive description in the field of anthropology and through the use of information collection tools, including observation and observation in Masha The research concluded that the demographic reality and the presence of shrines belonging to the founders of the Sufi groups in Iraq (Qadiriyah, Rifa'ia and Nakhshbandi) have the greatest influence in the development of a special sense of the Sufi experience in Iraq, as well as the impact of Iraqi Sufis in the clash between the armed groups of a religious nature with the authority in Iraq, in which the daurish at present tried to form a mental image of religious practices, including the nature of the hospital to return these groups to its religious end and concluded the image of Mga Rh for jihadist movements that have spread in the Iraqi scene in the period prior to 2003, after the fall of the former political regime created a new political process.

الهوامش

(١) وان مفهوم القداسة ضمن البعد الديني تتصل من جهة شيء مخيف وتتضمن فصلا جذريا بين الإنسان والالهي مع اماكن التواصل بينها بواسطة (شعيرة، صلاة، طقس ... الخ) حيث ان الدين هذا الوسط الاعلامي بين المقدس والمدنس بين الخارق والعادي، ان المقدس مزدوج الهوية فهو مختلف تماما وقريب جدا من الإنسان ، وله صبغة خاصة بالإلهة فصارت عبر الفعل الوضعي للدين تضفي على الإنسان او الانساني المكتسب في الجماعة صفة القداسة من هنا ظهرت القدسية والاولياء والائمة والصالحين.
ينظر الخليل، احمد خليل، ١٩٩٥، معجم المصطلحات الدينية، ط١، بيروت، دار الفكر اللبناني، ص١١٢.

(٢)بيومي، محمد احمد، ١٩٩٩ ،علم الاجتماع الديني، ط١، الاسكندرية، جدار المعارف الجامعية، ص٣٢.

(٣)الياد ، مرسيا، ١٩٨٨، المقدس والمدنس، ط١، ترجمة عبد الهادي المحامي، دمشق، دار دمشق للطباعة ، ص١٥.

(٤)ولف، كريستوف، ٢٠٠٩، علم الاناسة التاريخ والثقافة والفلسفة ، ترجمة ابو يعرب المرزوقي،ط١، ابو ظبي، منشورات كلمة، ص٢٩٢.

(٥) المصدر السابق ، ص٢٩٨.

(٦)ولف، كريستوف، علم الاناسة التاريخ والثقافة والفلسفة ، مصدر سابق، ص٢٩٩.

(٧) الملاحظة بالمشاركة.

(٨) يعرف الدراويش اصل الخرقة هو الثوب الممزق وهو مايلبسه المريد عن اعطاء البيعة لشيخه، ويذكر الدرويش ان اصل الخرقة قديما قطعة من الصوف والتي عرف التصوف باسمها والتي تدل على الزهد، الا ان هه الخرقة لها طقوسها ويعتبر طقس الخرقة اول طقوس مرور.

(٩) العلاقة الروحية بمرور الزمن حولها البعض الى نسبة دموية فصار اغلب من يمارس التصوف ينسب نفسه دمويا الى النبي محمد (ص) من خلال وصل نسبة بشيخ الطريقة الاول كما في الشيخ عبد القادر الكيلاني والشيخ احمد الرفاعي.

(١٠)جوفروا، ايريك،٢٠١٠، التصوف طريق الاسلام الجوانية، ترجمة عبد الحق الزموري، ط١، ابو ظبي، كلمة للنشر والتوزيع، ص١٤٧.

(١١) مقابلة مع احد الاخباريين.

(١٢) ايريك جوفروا، التصوف طريق الاسلام الجوانية، مصدر سابق، ص ١٤٨.

(١٣) مقابلة مع اخباري في مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني .

(١٤) الملاحظة بالمشاركة.

(١٥) الملاحظة بالمشاركة ، نشير هنا الى رأي باشر الى اعتبار كل من الطهر والتطهير اخلاق الماء، وهو ظاهرة باعثة الى قيم دينية ، اذ ان الطهر احد المقولات الأساسية الى التقويم ، وتتلخص كل ذلك من خلال الطهر الشعائري ويبين ان الخيال المادي يجد في الماء المادة النقية بامتياز ، وان الماء نفسه يقدم نفسه رمزا طبيعيا للنقاوة.
ينظر باشلر، غاستوف، ٢٠٠٧، الماء والاحلام دراسة عن الخيال والمادة، ترجمة علي نجيب ابراهيم، ط١، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ص ٢٩٧.

(١٦) حمزة حمادة،٢٠١٤، الرمز بين الرؤية الصوفية والابداع الفني، مجلة كلية اللاهوت، العدد٤٠، جامعة دوكوز إيلول، ، ص٢٩٠.

(١٧) الملاحظة بالمشاهدة والمقابلات، وعند التقرب اكثر من الدراويش نجد بعض منهم يرى ان طريقته هي الحق وهي الاولى وما دونها باطل.

(١٨) ايريك جوفروا، التصوف طريق الاسلام الجوانية، مصدر سابق، ص ١٦٠.

(١٩) مقابلة مع احد الاخباريين.

(٢٠) نشير هنا ان في الدين الاسلامي ليس كل الغناء والموسيقى حرام فقد ذهب جملة من الفقهاء بجواز الموسيقى الذي لا يشمل ولا يتضمن الترجيع.

(٢١)عقيقي، يوحنا،٢٠٠٣، الرمزية التجاوزية في مفهوم الرقص عند مولانا جلال الدين الرومي، بحث منشور في حولية الدراسات الادبية، العدد ٧، طهران، ص١٠.

(٢٢) صلاة الاستشراق هي صلاة ركعتين بعد طلوع الشمس وقد وردت في بعض كتب الصحاح للترمذي ومسلم والبخاري وقد اختلف في مدى وثاقة الحديث الذي ذكرها فمنهم من وثقه ومنهم من ضعفه .

(٢٣) مقابلة مع احد الاخباريين.

(٢٤) مقابلة مع اخباري.

(٢٥)البشيري، حسن،٢٠١١، الغناء والموسيقى وآلات اللهو ، دراسة فقهية استدلالية، بحث منشور في حولية الاجتهاد والتجديد، العدد الثامن عشر ، بيروت، ص١٥٣.

(٢٦)الوائلي، عامر عبد زيد، ٢٠١٧، الموسيقى الصوفية وتجلياتها- الموسيقى الصوفية انموذجا، الرباط، منشورات مؤمنون بلا حدود ، ص٤.

(٢٧)الحاج عثمان رحمة بنت احمد، و سامي، عبد الحليم، ٢٠١٤، مظاهر التأثير والتأثر في شعر المدائح نبوية، حولية الجامعة الاسلامية العالمية، مجلة علمية محكمة، العدد الثاني والعشرون، باكستان، ص٣٣٠.

(٢٨)الزين، بكري الناير محمد، ٢٠١٨، مشروعية المديح النبوي، بحث منشور في مجلة كلية التربية الاساسية للعلوم التربوية والانسانية، العدد ٣٨، بابل ، ص٤٨٧.